المجلس السادس

في مقام التلقي لحقيقة الاستخلاف في الأرض
وبيان شروطه الابتلائية!

١ - كلمات الابتلاء:

قَالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً
قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ
إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ
أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣١) قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ
إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل
لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا
لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٣٤) وَقُلْنَا
يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا
مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ
عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ
هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ
فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ
هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٣٩) ﴾.

٢ - البيان العام:

ذلك هو الكتاب، وذاك هو هداه، وتلك هي حُجَّته. كذلك كان تأسيس الخطاب القرآني - في هذا المدخل العظيم من سورة البقرة - بيانًا لأصناف البشرية الثلاثة، مدحًا لمؤمنيهم وذمًّا لكفارهم ومنافقيهم، وبيانًا لتهافت ما يلتجئون إليه من شبهات وتشكيكات في كتاب الله، وفي عظمة قدرته تعالى ومعجزات خلقه.

ليكون ذلك كله جذعًا لبيان شجرة الخلق البشري؛ وأصلًا ينبني عليه قصة خلق الإنسان من البداية، بتوضيح حكمته وغايته، وبما يكون به البيان التام لطريق الهدى الذي جاء به هذا القرآن، والتفصيل الشامل لمنهاجه الإصلاحي بناءً وتجديدًا.

فعندما نادى الخالقُ - جلَّ ثناؤه - البشريةَ بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ... ﴿٢١﴾ ﴾ وقدَّم بين يدي ذلك حُجَّته التعريفية البالغة، وما هيأه لمعاش الإنسان - قبل خلقه - من أرض وسماء؛ كان سبحانه يَرُدُّهُ إلى أصل طبيعته، وحقيقة خِلقته، ومعنى وجوده؛ ولذلك جاء هذا المقطع الخاتم لهذا المدخل يعرض لنا قصة خلق الإنسان وحكمة تكوينه، وما دار في الملأ الأعلى بين ربِّ العزة وملائكته من حوار في شأنه. فجاءت هذه الآيات الضاربة في عمق الغيب بما يُخبِتُ القلوب ويبهر العقول! ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ... ﴿٣٠﴾ ﴾ الآيات. كان ذلك خطابًا قبل خلق الإنسان! فيه إخبار للملائكة كي تتهيَّأ لوظيفة جديدة من وظائفها التعبُّدية، هي القيام بشؤون هذا المخلوق الجديد وخدمته فيما أذن اللّٰه لها به.

ولم يذكر - في البدء - ههنا لفظ « إنسان » ولا لفظ « بشر » ولا اسم « آدم »، وإنما سماه بوظيفته ابتداءً، فقال: « خليفة! » وذلك للدلالة على انحصار حكمة وجوده في هذا المعنى العظيم: الاستخلاف في الأرض! وأنه لا معنى لحياته إن لم يقم بما كُلِّف به!

وقد اختلف المفسرون في معنى « الخليفة » ههنا على مذاهب، ذكرها الإمام الطبري مُفصَّلة، منها: أنه جنس قوم يخلف بعضهم بعضًا في الأرض، جيلًا بعد جيل. ومنها: أنه خَلْقٌ جديد يخلف سكان الأرض من الجن الذين عمروها قبل الإنسان فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء. ومنها: أنه خلق يسكن الأرض ويعمرها من غير الملائكة. ومنها: أنه خلق يحكم في الأرض باسم اللّٰه ويفصل في الخصومات التي تقع بين بني جنسه [1]. وإنما كان سبب الخلاف هو المعنى اللغوي الذي تحيل عليه عبارة الخليفة، فكان جمهور المفسرين يتحرَّجون من وصف الإنسان بـ « خليفة اللّٰه » في الأرض؛ لما في مفهوم « الخلافة » من معنى النيابة والوكالة! واللّٰه ﷻ لا وكيل له ولا نائب في ربوبيته وألوهيته، سبحان اللّٰه عن ذلك علوًّا كبيرًا.

(١) ن. الروايات مفصلة في تفسير الطبري للآية.

والحقيقة أن الذين استعملوا هذا التعبير، ما قصدوا هذا على الإطلاق، وإنما كان قصدهم أن الخلافة هي بمعنى: التكليف الابتلائي التعبدي بالشهادة على الخلق ليس إلا. إنها مسؤولية نيطت بالإنسان بصفته عبدًا لله أولًا، يمارس بها عبوديته لربّه ويرعى شؤون الناس بمقتضى ما أمره الله به. تمامًا كما قال الله تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [ص: ٢٦] وهو ما اختاره الإمام القرطبي وغيره (١). فـ « الخلافة عن الله » هنا هي: الحكم باسم الله والتصرف على مقتضى وحيه! وهذا لا ينافي توحيده تعالى في ربوبيته ولا ألوهيته، بل هو داخل تحت معنى عبوديته وطاعته. وقد أوكل الله ﷻ وظائف عدة للملائكة، فمنهم المكلف بأمانة الوحي وبلاغها إلى الرُّسُل، والمكلف بزجر السحاب وكَيْل الأمطار، والمكلف بنفخ الأرواح في الأجنة، والمكلف بقبضها عند الموت، ثم المكلف بكتابة أعمال بني آدم... إلخ. ولا ينافي شيء من ذلك كله كمال ربوبيته تعالى. بل هو ﷻ قبل ذلك وبعده على كل شيء قدير وبكل شيء محيط!

ذلك قصدهم بمفهوم « خليفة الله »؛ ومع ذلك فنحن لا نحبذ استعمال هذا التعبير؛ لما فيه من اشتباه. ولا ضير أن تكون « الخلافة » بمعنى أن الإنسان قد خلف غيره من الخليقة الأولى في الأرض، كما قال تعالى في حكاية قول موسى عليه السلام لبني إسرائيل: ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٩]. وذلك كله إنما كان في الحقيقة خلافًا على المستوى اللغوي، ولا خلاف في وظيفة الخلافة ما هي، وذلك هو المطلوب.

وعليه؛ فالذي وجب الانتباه إليه أن عبارة « خليفة » قد ارتقت ههنا من المعنى اللغوي المحض إلى معنى اصطلاحي شرعي خاص! فصار لفظ « الخليفة » يطلق مجردًا من كل إضافة - كما جاء في القرآن - لاستقلال العبارة في الدلالة على معناها هكذا مجردة، ولتجاوزها للمعنى اللغوي، وقيامها بنفسها مصطلحًا مستقلًّا من مصطلحات القرآن الكريم، فلا داعي بعد ذلك لإسنادها إلى الإضافات أنى كانت.

فالخلافة إمامة تعبديَّة شاملة، ليست محصورة في المعنى السياسي الجزئي أو المعنى

---

(١) ن. تفسير القرطبي للآية. ومن المعاصرين الذين استعملوا تعبير « خليفة الله » الأستاذ سيد قطب رحمه الله.

القضائي الضيق، بل هي أوسع من ذلك وأشمل، إنها مسؤولية وابتلاء، وتكليف بأمانة رعاية حقوق الله فيما سخر الله للبشرية من أرض وما فيها! وما أتاح للإنسان من سُنن بناء التمدُّن والحضارة. إنها تتأصَّل ابتداء في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢] ثم في معنى الشهادة على الناس، في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ... ﴿١٤٣﴾ ﴾. ومن ثم فالناس إزاء الخلافة فريقان: فريق أضاع أمانتها فحاق به حكم الله: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢] وفريق قام بحقها ووفَّى بها فجعله الله أمةً وسطًا تقوم بالشهادة على الناس.

فالمقصود بالخلافة القيام بعمران الأرض وإصلاحها، وتوجيه القلوب إلى توحيد الله رب العالمين. ويجمع ذلك كله قوله تعالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود: ٦١].

وعليه؛ فالأرض بكلِّ ما فيها هي تبع للإنسان في معنى الخلافة، بمعنى أنه إذا صلحت خلافته فيها صلحت الأرض كلها، وإذا فسدت فسدت! ومن هنا كانت إمامته قائمة ليس على الإنسان فحسب؛ بل على كل الكائنات الحيوانية والطبيعية، من كلِّ عناصر البيئة المسخرة له، فهو مسؤول عن المحافظة على صلاح الغابات والأنهار والبحار والهواء والحيوان والطيور والأسماك... إلخ. كل ذلك تابع لشهادته على الناس والقيام فيهم بوظيفة الإصلاح. وهو كله داخل في أمانة الخلافة التي خلقه الله من أجلها ابتداءً. فالخلافة أُمَّةٌ وإمامٌ يخلفون بني جنسهم وغيرهم من المخلوقات، في القيام بين يدي الله بحقِّ الله. فالإمام مقدَّم في أمَّته والكل في ذلك له تبع؛ إلا من أزاغ الله قلبه وخرج عن مقتضى العهد فكان من الخاسرين. فموقع الخليفة ههنا أشبه ما يكون بموقع إمام الصلاة، هو مقدَّم والمأمومون له تبع، لكنه لا يغني في عبادة الله عن أحد شيئًا! بل لابد لكلِّ فرد من الانتظام في صفِّ الصلاة!

وِمن ثَمَّ فالخليفة - بهذا المعنى الشمولي - متعدد وليس فردًا، تمامًا كما تتعدد جماعات الصلوات بتعدد المساجد في البلد الواحد، والقطر الواحد، وعبر أقطار الأرض كلها. نعم، لا خلاف في أن « الخليفة » بالمعنى السلطاني لا يمكن إلا أن

يكون فردًا، ولكن حديثنا ههنا عن « الخليفة » إنما هو بمعنى اسم الجنس، كما تطلق عبارة « إنسان » على معنى الجنس الإنساني دون أن تقصد إنسانًا بعينه. وعليه؛ فكل من حمل أمانة صغيرة أو كبيرة فهو فيها خليفة! كما في حديث: « كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عن رَعِيَّتِهِ، فالإِمَامُ رَاعٍ وهو مسؤولٌ عن رَعِيَّتِهِ، والرجلُ رَاعٍ في أهله وهو مسؤولٌ عن رَعِيَّتِهِ، والمرأةُ رَاعِيَةٌ في بيت زوجها وهي مسؤولةٌ عن رَعِيَّتِهَا، والخادِمُ رَاعٍ في مَالِ سيده وهو مسؤولٌ عن رَعِيَّتِهِ، والرجلُ رَاعٍ في مالِ أَبِيهِ وهو مسؤولٌ عن رَعِيَّتِهِ. فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عن رَعِيَّتِهِ! »[1]، ثم تجتمع كلمة الأمة بعد ذلك على رجل واحد يكون خليفة الخلفاء.

فهذا هو الخليفة بالمعنى السلطاني، الذي يمثل كلمة الأمة كلها، ويمضي باسمها في تدبير أمورها ورعاية مصالحها. فهو واحد في نفسه لكنه متعدد في مفهومه لأنه ينوب عن أمة كاملة! ومن ثم فالخلافة معنى كلي شامل لهذا وذاك جميعًا. وتلك هي الشهادة الكاملة على الناس. فقوله تعالى: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ... ﴿٣٠﴾ ﴾ هو آدم بالأصالة، وما يمثله من نسل صالح خاصَّة، والكل مجموع في الأمة المؤمنة والورثة الصالحة. ذلك، والله تعالى أعلم.

ولأن الملائكة علمت - بما أعلمها الله به - من أن آدم عليه السلام سيكون له ذريةٌ، وأن منها ما سيقتتل ويسفك الدماء ويفسد في الأرض، تساءلت بين يدي ربِّها - تساؤل دعاء وخضوع - تطلب معرفة الحكمة من خلق هذا المخلوق الجديد؛ إذ ما علمت عنه غير طبيعته الغضبية، وأما وظيفة العبادة فهي تقوم بها في صلاتها الدائمة على أكمل وجه تسبيحًا وتقديسًا: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ... ﴿٣٠﴾ ﴾. والتسبيح: تنزيه الله تعالى من كلِّ نقص، والتقديس: التطهير والتعظيم، وهو هنا بمعنى نسبة الله تعالى إلى كمال الطهارات والعظمة. فأجابها الحق سبحانه: ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي أعلم من طبيعة هذا المخلوق ما لا تعلمون، وأعلم من حكمة استخلافه في الأرض وابتلائه بأمانتها ما لا تدركون، رغم ما سيكون في بعض نسله من إفساد. لكنه إفساد داخل في معنى الحكمة الإلهية، التي اقتضت أن يكون في الأرض من يعبده بإصلاح

---

(١) متفق عليه.

ما أفسد الناس! فهو تعالى سيرسل فيهم الرسل بدءًا بآدم ﷺ نفسه، ويجعل منهم الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وما دخل في معنى هذا وذاك من أولياء وعبَّاد وزهَّاد وعلماء وربَّانيين... إلخ. يجاهدون أنفسهم في طاعة اللَّه وعبادته رغم ما جبلوا عليه من حب الشهوات، ورغم ما قيدوا به من ضرورات الأرض وحاجاتها، ثم يقاتلون في سبيل اللَّه في السراء والضراء، ويسترخصون أنفسهم في ذات اللَّه! وهو ما لا تستطيعه الملائكة المطهرة في سمائها!

ويدخل في قوله تعالى: ﴿ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ أيضًا ما هيَّأه ﷻ في سابق علمه - مما لا تحيط به الملائكة - من تدبير كوني عظيم بدءًا بخلق الأرض نفسها وسمائها كما تبيَّن قبل، وانتهاءً بمصير الكون كله وفنائه وإعادة خلقه من جديد، ليقوم الناس ليوم الحساب، فيصير من يصير إلى الجنة - جعلنا اللَّه من أهلها - ويصير من يصير إلى النار أعاذنا اللَّه منها. وكذا ما يعلمه تعالى من وجود إبليس اللعين من بين الملائكة - وهو ليس منها - وما يضمره من حسد وكيد لهذا المخلوق الجديد. وما سيكون له من دور في الغواية والتغرير بالإنسان، وما سيكون لها هي أيضًا من دور في نصرة المؤمنين في معركة الحقِّ والباطل إلى يوم الدين.

ثم مع هذا وذاك يعلم سبحانه ما جعل للإنسان من مواهب وقدرات على التعلم والتعليم، والفهم والإدراك، والتخاطب والتواصل، وما جهَّزه به ﷻ من قدرات عقلية خارقة، يكون بها سائر ضروب الاختراع والإبداع، مما تقوم به عمارة الأرض.

ومِن ثَمَّ عرض سبحانه على الملائكة آيةً عظيمة لتفوق هذا المخلوق وتميزه، فقال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

أجمع المفسرون على أن هذا بيان من اللَّه - جلَّت حكمته - لشرف آدم على الملائكة، ولوجه عظيم من وجوه حكمة خلقه ﷺ، وأمره تعالى الملائكة بالسجود له! فهذا مقام عظيم له ولذريته الصالحة!

فقوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ ... ﴿٣١﴾ ﴾ أي علمه أسماء كل شيء من المخلوقات، من سائر الأمم والأجناس والأنواع، بما فيه أسماء الملائكة نفسها، وأسماء

المعاني والأفعال والحركات وسائر التصرفات. ويدخل في ذلك القدرة على اختراع المفاهيم والألفاظ، واللغات وما تتضمَّنه من إمكانات التخاطب والتواصل والإبداع والتفكير! وقد آتاه اللَّه من ذلك موهبتين متكاملتين هما: التعلم والتعليم؛ لأنه تعالى علَّمه فتعلم، وأمره بتعليم الملائكة فعلَّم! وبهذين كان التطور العمراني في المجتمعات البشرية. فكان للإنسان هذا التفوق العجيب في الغوص على المعاني العميقة، واستنباط الحقائق الدفينة في كلِّ المجالات العلمية، الروحية والحسية سواء، مما لم يؤته اللَّه أحدًا من العالمين! يكتشف الشيء من الأمور المعنوية أو المادية، فيخترع له اسمه، إما بالنظر إلى طبيعته، أو إلى وظيفته، أو إلى صفته، أو مناسبته، أو مشابهته.. إلخ، ويشتق له من الصيغ في جميع الأحوال ما يناسبه. فيجعل ذلك الاسم - وقد كان وليد تفكير - أداة ووسيلة للإبداع والتفكير! ومِن ثَمَّ قيل: « إن اللغة فكر »؛ ولذلك كانت اللغة سرًّا من أعظم الأسرار التي أودعها اللَّه في فطرة الإنسان!

ومِن ثَمَّ أراد الحقُّ تعالى أن يظهر للملائكة بعض ما ينطوي عليه هذا المخلوق الكريم، فعرض عليها مجموعة من الكائنات والحقائق فطلب منها تسمية كل شيء باسمه، فعجزت عن ذلك؛ لأنها لم تُؤْتَ تلك القدرة ولا أُعطيت تلك الموهبة. وقوله تعالى: ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أي فيما توهمتم من أن بني آدم ليس لهم من قابلية سوى الإفساد في الأرض وسفك الدماء. فلما ظهر عجزهم توجهوا إلى اللَّه بالتسبيح والتنزيه أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء، مخبتين بين يديه مستغفرين، ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾، العليم وحده بكلِّ شيء، الحكيم في ما خلق وقدر وأمر، فكل فعله عدل وحكمة، يهب لمن يشاء ما يشاء، ويمنع من يشاء ما يشاء. وهنا أمر اللَّه تعالى آدم بتسمية الكائنات المعروضة فسمَّاها جميعًا؛ فانبهرت الملائكة بما جعل اللَّه في هذا المخلوق العجيب من كمال الخلق والإبداع! ثم قال الحقُّ تبارك وتعالى للملائكة: ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ بمعنى: ألم يسبق قولي لكم بأنني أعلم غيب الملكوت كله مما في السموات والأرض؟ - إشارة إلى قوله تعالى قبل: ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ - وبأنني أعلم ما تظهرون وما تخفون. سواء عندي سرائركم وعلانيتكم هكذا على الإطلاق.

والذي أظهروه - في هذا السياق - هو قولهم: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾، والذي كانوا يكتمونه هو ظنُّهم أنهم أكرم عند اللَّه من كلِّ مخلوق، ثم ما كان إبليس اللعين منطويًا عليه من التمرُّد على اللَّه وعصيان أمره تكبرًا وغرورًا؛ ففضحه اللَّه بامتحان السجود لآدم!

ثم يُذَكِّرُ الحقُّ سبحانه البشريةَ بهذا الفضل العظيم الممتد إليها مِنْ مَنِّهِ تعالى على أبيها آدم، إذ أمر الملائكة بالسجود له تحيةً وتكريمًا! فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ذهب بعض المفسرين إلى أن سجود الملائكة لآدم كان قبل تعليمه الأسماء، فقد أُمِرَتْ بالسجود له قبل خلقه، ليقع مباشرة بعد تسويته ونفخ الروح فيه، وأن هذا مرتبط بالآية الأولى في هذا السياق، وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ الآية، فهنالك كان الأمر بالسجود، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٨، ٢٩] فهذا واضح في أن أمر اللَّه تعالى الملائكة بالسجود لآدم كان قبل خلقه، فهو أَمْرٌ تنفيذه متعلق بشرط، وهو تمام الخلق ونفخ الروح كما تصرِّح به هذه الآية؛ ولذلك استفسرت الملائكة بقولها: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ فأجابها الحقُّ جوابًا مجملًا: ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فأنابت الملائكة إلى ربِّها وأطاعت. لكن إبليس اللعين غاظه ذلك، وكره أن يكون هناك مخلوق أفضل منه، فامتلأ قلبه حسدًا وحقدًا واستكبارًا، وأضمر في نفسه التمرُّد والعصيان لأمر اللَّه! فكل ذلك كان قبل خلق آدم عليه السلام، فلما خلقه تعالى ونفخ فيه من روحه سجدت له الملائكة كلُّها طاعة لربِّها؛ إلا إبليس فقد افتضح أمره مما لم يكن يعلمه إلا اللَّه، وظهر للجميع أنه عاصٍ لربِّه مُتمرِّدٍ على أمره! وبعد ذلك جاء امتحان الأسماء فكان منه ما كان مما سبق بيانه. والحكمة من ذلك أن الملائكة مطيعة لربِّها في كلِّ ما أمر، سواء علمت حكمة الأمر أم لم تعلم، فسجدت لآدم أولًا استجابةً لأمر اللَّه. ثم بيَّن لها الحقُّ تعالى بعد ذلك حكمة خلقه لعبده آدم عليه السلام بما كان من قضية الأسماء.

وقد بيَّن ابن كثير رحمه الله حكمة هذا التقديم والتأخير، عند تفسيره لقوله تعالى:

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ ... ﴿٣١﴾ ﴾، قال: (هذا كان بعد سجودهم له، وإنما قدم هذا الفصل على ذاك؛ لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليقة، حين سألوا عن ذلك فأخبرهم تعالى بأنه يعلم ما لا يعلمون؛ ولهذا ذكر اللَّه هذا المقام عقيب هذا؛ ليبين لهم شرف آدم بما فضل به عليهم في العلم)[١].

فسجود الملائكة لآدم كان طاعة للَّه، وتحية لآدم بما كرّمه اللَّه. لكن إبليس بما أنه لم يكن من جنس الملائكة المفطورة على الطاعة لربِّها، وإنما كان من الجنّ؛ فقد أظهر ما كان يضمره من الحسد والتكّبر والعصيان، فأبى السجود وأعلن تمُرده على اللَّه والعياذ باللَّه! ﴿ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ أي من الجاحدين لنعمة اللَّه العاصين لأمره، غير الراضين بحكمه. فكان بذلك من المطرودين من رحمة اللَّه الملعونين بلعنة اللَّه إلى يوم الدين! ومِن ثَمَّ كان معنى « إبليس » مشتقًا من الإبلاس، وهو الإياس من الرضا والرحمة، والعياذ باللَّه!

وهنا بدأت المعركة بين الحقّ والباطل، وبدأ إبليس اللعين في تنفيذ وعيده وكيده الشرير لآدم ابتداءً، ولكلّ من يكون من ذريته عليه السلام إلى يوم الدين! فتأسَّست بذلك حكمة الابتلاء الإلهي للبشرية في الأرض بهذه الحياة الدنيا، وما يترتَّب عنها بعد ذلك من فوز أو خسران. قال تعالى: ﴿ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٣٦﴾ ﴾.

خلق اللَّه أنثى الإنسان « حواء » من ضلع آدم عليه السلام[٢] ، فجعلها بحكمته تعالى له زوجًا. ثم أسكنهما الجنة العليا ابتداء، وهو تعالى يعلم أنما هو في تلك المرحلة سكن مؤقت، إذ لا بد للبشرية من سكنى الأرض أولًا، تلك الأرض التي خُلِقت لها ومن أجلها! فقد سبق قوله تعالى قبل خلقه لآدم: ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ ... ﴿٣٠﴾ ﴾. ولذلك فسكنى الجنة ههنا إنما هو سكن مؤقت؛ لابتلاء آدم وزوجه ابتلاء أوليًا، يخضع فيه لنوع من التعريف بطبيعته البشرية، ومناعته

---

(١) تفسير ابن كثير للآية.

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم قال: « استوصوا بالنساء خيرًا فإن المرأة خلقت من ضلع... » الحديث متفق عليه.

الضعيفة تجاه الخطايا والشهوات! أراد الحق تعالى أن يعرف الإنسانُ ذلك في نفسه وهو في الجنة! فما بالك إذا كان في الأرض التي هي موطن الرغبات الطينية والنزوات! والحقيقة أنه مشهد عجيب يكشف عن طبيعة الخلقة البشرية بجلاء، فقد أباح الله لآدم الجنة كلها، بجميع أشجارها وثمارها وأنهارها! وبكلِّ سعتها التي عرضها السموات والأرض! فقال: ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ... ﴾ هكذا! « حيث شئتما » على الاستغراق الشامل! والرَّغَدُ: العيش الواسع الهنيء. لكن الله منعه من شجرة واحدة فقط، شجرة واحدة من بين ملايير الأشجار والثمار! حتى لا يكاد يجد الناظر ابتداء في هذا العرض الربَّاني الوسيع شيئًا من معنى الامتحان! لولا أمران اثنان هما: تدخل الشيطان اللعين! ثم قابلية الإنسان لتلقي وسواسه! فوسوس إبليس لعنه الله لآدم وزوجه بما جاء في قول الله تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف: ٢٠ - ٢٢].

هكذا أزلَّ الشيطانُ آدم عن الجنة، أي نحّاه عنها وأبعده منها، وتسبب له بالإخراج مما كان فيه من نعيم، لكن آدم كان بذلك في الحقيقة يتعلَّم! وهذا هو الشيء المهم ههنا. وقد جعل الله فيه خاصية التعلم والتعليم. نعم، تعلَّم آدمُ الدرسَ واستوعبه بصورة كاملة، بعد اختبار وتجريب، وأدرك حق الإدراك معنى كون الشيطان عدوًّا له! ليعلم كيف ينبغي أن يتعامل مع عدو الله إبليس إذا ما أسكنه الله الأرض، حيث لا مناعة للإنسان من الشيطان إلا بذكر الله والاعتصام به!

وانكشف الأمر الإلهي عن قدر الله القديم: ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ هنا في هذه الأرض إذن سيعيش الإنسان معنى الابتلاء حقًّا! فهي مكان هابط وموطن نازل، يحكمه منطق الشهوة والمتاع! ولذلك فهنا يرتقي من يرتقي، ويهوي من يهوي! فالاستخلاف للبشرية ليس أمرًا هيّنًا ولا هو تكريم بغير شرط! بل له شرط عظيم هو: الدخول في الابتلاء الإلهي

بأمانة هذا الدين عقيدة وشريعة، فإمّا طاعة وفوز وإما عصيان وخسران مبين! فمتاع الأرض واستقرارها إنما هو لهذا، وهو أمر محدود بأجل معلوم. لكن الذي ينبغي استيعابه في هذا كلّه، هو قوله: ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ... ﴾ فمن نسي حقد الشيطان وتوهّم أنه عن كيده بمعزل فقد هلك!

ثم يكشف الحقُّ تعالى عن خاصية أخرى من خصائص الإنسان، خاصية من أعظم خصائصه التي فُطِر عليها، خاصية تميزه وترفعه وتعليه وتزكيه، وتجعله أهلًا لما كُرِّمَ به في الملأ الأعلى، ألا وهي خاصية التوبة! التوبة بما تحمل من معاني الندم والاعتراف بالخطأ والإقلاع عن المعصية والعزم على تصحيح المسار! ومخلوق لا يتميز بهذه الصفة الأساس لا يكون أهلًا لحمل أمانة الرحمن والاستخلاف في الأرض. ومن ثَمَّ ففقدان القابلية للتوبة والإنابة معناه فقدان الإنسان لفطرته، والهبوط إلى درك الطبيعة الشيطانية! فإبليس هو المثال في الإصرار على خطيئته وتمرّده على خالقه! قال تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

وقد قال بعض المفسرين إن الكلمات التي تلقاها آدم هي قوله تعالى - في سورة الأعراف - حكاية عن آدم وزوجه: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣] (١) فبالرجوع إلى الله والإنابة إليه توبةً واستغفارا يرتقي آدم مرة أخرى إلى مقام الرضا الإلهي الكريم. وهذا ما يزيد حقد إبليس عليه؛ إذ الشيطان - نعوذ بالله منه - يمنعه كبرياؤه من التوبة والاعتراف بالخطأ! فصارت تلك خاصية في كل شيطان من الإنس والجن إلى الأبد! ومن تاب تاب الله عليه فهو تعالى ﴿ ٱلتَّوَّابُ ﴾ ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾، هكذا: ﴿ ٱلتَّوَّابُ ﴾ بهذه الصيغة الدالة على المبالغة واستيعاب كل معاني العفو على كلِّ أنواع الذنوب؛ ما دام الإنسان يتوب قبل فوات الأوان! وهو تعالى ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أي شديد الرحمة والرأفة بعباده المذنبين كلما آبوا وتابوا، فهو تعالى ليس كالآلهة المذكورة في أساطير اليونان، ولا كما تُصوِّره توراة اليهود المحرّفة إلهًا غضوبًا ذا نزوات وشهوات! سبحانه وتعالى عما يصفون! كلا كلا! إنه ربٌّ توّابٌ رَحيمٌ، سبقت رحمتُه غضبَه! (٢) فهو تعالى يَرْأُف بعبده ويرعاه، ويلطف به

(١) ن. الروايات في ذلك بأسانيدها في تفسير الطبري.

(٢) أخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ، قال فيما يرويه عن ربّه: قال الله تعالى: « سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي »

للهدى خطوة خطوة، فإذا ما زلَّ أقْهَلَه وأقْهَلَه ثم أقْهَلَه؛ عساه يتوب! فإذا تاب رقَّاه مرة أخرى واجتباه! ولا ينتقم إلا من جبَّار مستكبر عنيد، أو من طاغية شقي مَرِيد!

ولذلك قال بعد: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝ ﴾ فالأمر بالإهباط متعلق بآدم وزوجه وما يَصْلبه عليه السلام من ذرية، وكذا بإبليس اللعين؛ ولذلك قال: ﴿ جَمِيعًا ﴾. فهناك في الأرض سوف يبعث فيكم الرسل ممن يصطفيهم الله لوحيه ورسالاته وينزل عليهم الكتب هدى للناس. فآدم عليه السلام كان رسولًا إلى بنيه وحفدته، ولم تزل الرُّسُل تترى بعده إلى أن ختم الله السلسلة بسيد الأنبياء والمرسلين محمد - عليه الصلاة والسلام -. كلهم جاء بشيء واحد: الهدى! فمن اتبع الهدى فهو آمن من عذاب الله، ولا يفزع يوم يفزع الكفار يوم القيامة. وأما من كفر بذلك وجحده من بعد ما تبين له الهدى؛ فإن مصيرهم إلى نار جهنم التي أعدَّها المالك جلَّ وعلا للكافرين، عذابًا خالدًا سرمدًا.

وقد ذهب ابن كثير رحمه الله إلى أن هذا الإهباط المذكور ههنا هو غير الإهباط الأول المذكور في الآية السابقة. فالأول متعلق بآدم وزوجه، والثاني متعلق بذريته. وذهب غيره إلى أنهما واحد وأن التكرار ههنا هو للتوكيد، وأن المقصود بالإهباط دائما هو آدم وزوجه وإبليس. ورأس هذا المذهب الإمام الطبري رحمه الله [1] والأمر لا يختلف عندنا في نهاية المطاف؛ لأن المقصود منهما واحد، وهو الاستخلاف في الأرض وعمرانها على وجه الابتلاء والتمحيص تحقيقًا لوعد الله تعالى من قوله للملائكة: ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ... ۝ ﴾. ليكون من أمر الابتلاء بهذا الدين ما يكون من مصير معلوم.

ومن ثَمَّ قلنا ههنا وقفة منهجية، وإضاءة تذكيرية، وهي أنه بهذا المقطع اكتملت غاية البيان الإلهي الوارد في بداية السورة: ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ﴾ فهذا الكتاب الذي أنزل على محمد ﷺ إنما هو مرتبط بهذه السلسلة الطويلة الكبرى، وأنه تنفيذ لقدر إلهي قديم، يدخل في ذلك إيمان من آمن به من المتقين، وكفر من كفر به من الكافرين والمنافقين. فالمنطلق لذلك كله هو

(١) تفسير الطبري للآية.